مقال عن رواية

أن تقتل طائرًا بريئًا

إن مقالاً عن رواية (أن تقتل طائرًا بريئًا) يعني أن أصه عن الكلام الهشيم فيجب مراعاة عنصر الدقة في كتابة مقال عن رواية سمتها الدقة في كل شيء:

الشخصيات، الموضوع، الحبكة وحتى ترجمتها إلى العربية تلك كانت مقدمتي التي لا أريد أن أطيل الحديث فيها.

إنه من المعروف أن الرواية عمل فني يعتمد على عنصر الحكاية التي لها بداية ووسط ونهاية ... إلى آخره.

فقد بدأت الرواية بداية مشوقة تثير القارئ وتجذبه لقراءتها وأهم ما جذبني هو الصراع (أي التصادم بين الأحداث المختلفة نتيجة اختلاف الآراء بين الشخصيات المتعددة) فقد تتبنى شخصية ما وجهة نظر ثم تأتي شخصية أخرى فتقدم وجهة نظر أخرى وتنتهي إلى غلبة وجهة نظر هذه الشخصية أو تلك، أما عن الموضوع (التفرقة العنصرية الأمريكية) فإنه موضوع كل عصر وزمان فقد تعاقبت عليه الأجيال منذ قديم الزمان وحتى عصر اليوجينيا وحتى يومنا هذا.

فلو انتهى بي المطاف إلى أن آتي بمقارنة عن وضعنا نحن العرب بل المصريين بالنسبة لتلك التفرقة فسيكون كالآتي:

فإني لم أسمع عن التفرقة العنصرية بين البيض والملونين في مصر ولا حتى أي نوع من التفرقة فمصر بها قطاعات متباينة كثيرة في مختلف النواحي مثل الدين واللون ... وغيره. أما في أمريكا وغيرها فإنهم يرون فرق السماء والأرض يساوي فرق البيض والملونين، أي أن الملونين (السود) قطاع بشري يختلف عنهم وليس لهم علاقة بهم – إن لم تكن مبالغة – وأرجح وعلى مستواي الشخصي أن ذلك يرجع إلى القرن الثامن عشر فقد كانت أوروبا تسيطر على العالم مبتدئة بأفريقيا ثم آسيا ثم

أمريكا واعتبرت نفسها سيدة العالم وأن البشر جميعا خلقوا لخدمة أوروبا والرجل الأبيض وبالفعل فقد أرسلت عددا منهم إلى أوروبا للعمل عند الأثرياء في حقولهم مسخرين.

وأعتقد أن التفرقة والتباين بوجه عام موجودان في العالم بين الشمال والجنوب فالقارات الشمالية أكثر تقدما، ثراءً، نوعًا، عقلاً .. وكذلك القارة الواحدة مثل أمريكا الشمالية والجنوبية وكذلك الدولة الواحدة فمصر مثلا شمالها أفضل بكثير من جنوبها وهناك بالفعل – بينهم – التباين بين الألوان (الأبيض والأسود) ولكن الجميع سواسية تحكمهم سلطة واحدة وقانون واحد، ويعيشون بحريتهم على العكس تماما في أمريكا فلا يمكن مثلا أن يحدث تزاوج بين الطرفين ولا أعرف لماذا هذا؟ ولكن قد ألتمس العذر لهم لأنهم من البشر والبشر عادة تتباين أفكارهم العقلية تجاه موضوع واحد ولكنها سياسة حقًا وليست أفكاراً عقلية ولكن روايتنا أوضحت الجانب الذي يريد التخلي عن تلك السياسة التي يريد التعامل معهم بوصفهم بشر مثلهم، وهذا كل ما في الأمر .

أما عن رأيي في الرواية فلم أستطع إعطاءها وصفا محددا بل هي عمل فني متميز فمع أنها كتبت في عام ١٩٦٠ – تقريبا- فأحيانا أشعر بأنها كتبت العام الماضي ويرجع ذلك لرسوخ الموضوع قديما – كما ذكرت – حتى اليوم.

و لم أكن أتصور أن الولايات المتحدة الأمريكية التي أراها في أفلام هوليود سيكون بها كل هذا، فقد أصبت بخيبة أمل بعض الشيء حين قرأت الجزء الأول، ولكن سرعان ما جذبني توالي الأحداث وصرف هذا الشعور لدي. وقد أضافت لي تلك الرواية الكثير فهي تحتوي بداخلها على بعض تحليلات للشخصيات، وبعض الوصف ... وغيره.

وقد أضافت أيضا إلى محصلتي بفضل الهوامش الموجودة في بعض الصفحات، والتي تنتهي بكلمة (المترجمة) فقد تنورت ببعض الأشياء التي لم أكن أعرفها، أما عن الشخصيات فهي كثيرة جدا ومتنوعة وتختلف بالطبع في الأعمار والاتجاهات والعادات

وقد لاحظت شيئا ولا أعد هذا نقداً بل قد يكون العيب في أنه يعطي اسم الشخصية لأول مرة مع وصف مبسط عنها، وحين يذكر اسم الشخصية فيما بعد قد أنسى ما هي تلك الشخصية وذلك يرجع لتعدد الشخصيات، ولكن هذا أضاف للتـــرابط والإحكام حتى يخرج هذا العمل الفني مكتملاً، وقد أعجبني جدًا أسلوب المترجمة (د. داليا الشيال) فقـــد ترجمـــت الروايـــة بأسلوب أشبه بالروايات التي كنت أقرأها وأنا في سن صغير مثل روايات مصرية للجيب للدكتور / نبيل فاروق وهي لغة تميل إلى العامية مع الحفاظ على قوة الأسلوب وعدم انحطاطه، وبالطبع أوجه شكري أيضا للمراجع د. مصطفى ريـــاض الـــذي أشرف على مراجعة هذا العمل حتى يخرج لنا كاملاً متناهي الدقة هكذا.

وأيضا أوجه شكري إلى الأستاذ / أحمد مجاهد الذي أشرف على انتقاء شوائب اللغة بعد ترجمتها إلى العربية.

وأعود إلى موضوع الرواية، فرواية (أن تقتل طائرًا بريئًا) سردت جانبًا وقطاعًا طوليًا من حياة الأمريكيين ســـواء البـــيض أو الملونين، وقد ألاحظ على النوع الثاني اضطهاده وعدم حصوله على حريته كاملة، إلا من قلة قليلة مثل (أتيكـــوس) وأولاده وبعض أفراد عائلته وغيره، فكيف هذا؟

إني أوجه النقد لذلك النوع من البشر من المجتمع الأمريكي فمن المعروف أنه مجتمع متحضر ومطَّلِع على جميع الثقافات ويُعد هذا وصمة عار عليهم لبغضهم على تلك الفصيلة، بل ذلك النوع **من البشر** الذي خلق أصله من نفس الطين الحقير الـــذي خلق منه الرجل الأبيض فيمكن أن نعتبر اللون الأسمر فيهم صفة وليس عيبا قد يرونها صفة مكروهة، ولكنها وجدت فيهم عن غير إرادتهم وكم من عظماء أمريكيين من تلك الفصيلة وآخرهم الرئيس الأمريكي الحالي (باراك أوباما) فمع اضطهاد حملتـــه الانتخابية الرئاسية فقد صمم على أن يكون أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية من أصل أفريقي وأتساءل ومـــاذا عـــن سياستهم هذه تجاه القارة السوداء (أفريقيا) التي يعد موطني جزء منها والآخر في آسيا أيريدون إغراقها في المحيط لكي يعيشوا

مسرورين؟ فأنا شخصيا أعيب عليهم سياستهم هذه التي توصف بالرجعية والتخلف فكلاهما بشر وكلاهما يعيشون تحت ضوء قمر واحد، ذو عقل واحد، وبالإضافة إلى ذلك فالملونون يحترمون البيض كل الاحترام وهذه تعتبر في حد ذاتها رزانة وحكمة عقل أما الآخرون – ولا أعرف لماذا – فهم يحتقرون السود، وأود أن أصحح الخطأ في الفهم أن الرجل الأبيض الأوروبي هو وحده المتميز بالذكاء والصحة والأخلاق الكريمة، فالرجل الملون أيضا متميز بطيبة قلبه وقوة جسمه وبراءته وأخلاقه الصادقة، وحسه المرهف، وكلاهما لهم عيوب أما الرجل الأبيض الأوروبي مادي عنصري لا يحب غيره من الناس والرجل الملون يتلخص عيبه في حبه لحياة البداوة والاستمرار فيها بكل خصائصها وبما أن لكل قاعدة شواذ فلا أريد أن يأخذ البعض كلامي عامة على كل البيض أو السود الملونين ولكني أقول الشائع أمامي.

فتلك التفرقة وهذا الصراع ما هما إلا حماقة واضحة فكل منهما يحتاج إلى الآخر، فالرجل الأبيض يحتاج إلى الرجل الملون في الأعمال التي تتطلب قوة بدنية والتي لا يستطيع أن يفعلها هو بنفسه، وهذا هو الحال بالنسبة للرجل الأسود.

ولكن ليس هذا ما يحدث ، فالبيض – بالرغم من حياة الترف التي يعيشونها– فلا يريدون مشاركة السود معهم.

أليس من حقهم أن يعيشوا حياة مشتركة آمنة وسالمة؟!! وأود أن تراعى جمعيات حقوق الإنسان هذا فقد ينتج – وبالفعل قد نتج – عن هذا الحروب الأهلية، لذا فيجب وضع القوانين اللازمة لحماية السود من دكتاتورية البيض.

وأوجه اللوم للأمريكان الذين يشعرون بالنفور من سياسة هتلر النازية ويكرهون دكتاتوريته واضطهاده ضد اليهود، فالأمريكان يقومون هم بنفس الشيء مع الملونين، ولكن لا يشعرون. فعجبا لذلك النفاق الذي أودى بحياة المئات.

وتعكس روايتنا هذا الجانب وتوضح أن تلك التفرقة تؤثر بالسلب على الجانبين .

وفي نهاية كلامي ورأيي عن التفرقة العنصرية الأمريكية فقد أجد الحل من البداية عند معلم كل عصر وزمان الرجل الذي إذا اهتدت به أمة صلح حالها إنه رسولي وقدوتي سيدنا محمد (عليه أفضل الصلوات والتسليم) والذي أورد في بعض أحاديثه الشريفة هذا الجانب ومنها :قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : الناس سواسية كأسنان المشط – صدق رسول الله .

و لم أجد شيئا لأقوله بعد قول نبينا الكريم صاحب الكلمة والحكمة – آخر الأنبياء والمرسلين ومنقذنا يوم الدين عليه أفضل الصلوات والتسليم .

إن رواية (أن تقتل طائرا بريئا) قد تعجز الأقلام عن الكتابة في هذا الموضوع ثانية، فقد تناولت الموضوع تناولا يوصف بالجيد ولكني أرى بعض الثغرات فيها، ومنها الآتي:

أولا : فقد تناولت الموضوع من جانب البيض تجاه السود و لم تتناول شعور السود تجاه البيض (بدقة) أو بالمعنى الأصح باستيفاء.

ثانيا : وقد أوضحت أيضا موقف المعارضين للتفرقة أكثر من موقف المؤيدين للتفرقة وقد لا يكون هذا عيبًا

ثالثا : لم أجد في الرواية ما كان في توقعي فقد ظننت أنها مثل كل الروايات التي قرأتها تعتمد على عنصر الحكاية وتبدأ بداية مشوقة جذابة وتشجع على القراءة وتتبادل الأحداث ويصل القارئ في وسطها عند ذروة الأحداث إلى قمة التشويق والصراع حتى يبدأ الصراع في الهبوط ثم تخف حدته وتنكشف حقائق الأمور وأجد حلاً في النهاية أو لا أجد حلاً، على حسب اختيار المؤلف لطبيعة النهاية (مقفولة – مفتوحة).

أي كنت أريد أن يكون لها بداية ووسط ونهاية ويتميز الوسط بالتعقيد واحتدام الصراع وتتميز النهاية بالبساطة وإلقاء الضوء على طبيعة الصراع، فعلى سبيل المثال فإن رواية (زقاق المدق) للكاتب الكبير نجيب محفوظ والتي أصدرت عام ١٩٤٧ تعد خير مثال يوضح عناصر الرواية أما روايتنا أراها قد بعدت قليلا عن مفهومها الفني.

رابعا : ألا وهو ما يتعلق بالاسم فإني أراه معبرًا ولكن أظن أن هناك غيره الكثير والأدق ولكن لا بأس به.

أما خامسًا وأخيرًا: فكنت أود أن أرى ترجمة مقدمة المؤلفة (هاربر لي) ولكن لم أعرف ما السبب وراء ذلك.

أما في النهاية أود أن يحوز مقالي إعجاب حضراتكم وأن أكون قد وفقت – بفضل الله – في تناول أفكاري بعناية في ظل خبرتي الطفيفة أو المحدودة في مثل هذه الأعمال التعبيرية وأن أكون قد تناولت ما يتعلق بالرواية دون أن يطغى شيء على الآخر وأرجو في النهاية أن يكون مقالي مقبولاً على الأقل لكم، وشكري لكم ولمكتبة الإسكندرية، ولوطننا مصر.

تعليق من مكتبة الإسكندرية:

١ــ نود الإشارة إلى أن الأحداث والمواقف التي تحتوي عليها رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» تُصوِّر المجتمع الأمريكي في ثلاثينيات القرن الماضي، أي منذ حوالي ٨٠ عامًا، وقد حدثت تغيرات جذرية في المجتمع الأمريكي منذ ذلك الوقت (وخاصة في فترة الستينيات)، لذلك فإنه من الخطأ اعتبار أحداث الرواية ممثِّلةً للمجتمع الأمريكي اليوم، وكان لابد من الإشارة إلى هذا الفارق الزمني في المقال.

٢ــ يحتوي المقال على بعض التعميمات التي لا تستند إلى أساس علمي، مثل القول بأن «الرجل الأبيض الأوروبي مادي عنصري» أو أن «الرجل الملون متميز بطيبة قلبه وقوة جسمه وبراءته وأخلاقه الصادقة وحسه المرهف»، فكل هذه الأمور لا علاقة لها باللون، بل بعناصر أخرى مثل الثقافة والتنشئة الاجتماعية والطباع الشخصية. ونعتقد أن محاربة مثل هذه التعميمات والآراء المسبقة هي من أهم أهداف كاتبة الرواية.